الدلالة السيكولوجية للنظرة

بقلم
زكريا إبراهيم بقطر

قد يعجب القارئ إذ يرانا نجعل من « النظرة » le regard موضوعاً لبحث سيكولوجي ؛ وربما يأخذ علينا البعض أننا نعدو نطاق الدراسة السيكولوجية ، لكي نحلق في سماء المجردات ، ونجول في ربوع الميتافيزيقا . بيد أننا نبادر فنرد على هذا الاعتراض بأن نقول إن علم النفس مهما حاول أن يستقل عن الفلسفة ، فإنه لا بد أن يجد نفسه مضطراً إلى الاستفادة من نظرات أهل الفكر الذين طالما غذوا الدراسات السيكولوجية بفلسفاتهم « المجردة » . وإذن فلا عجب أن نلتجئ في هذا البحث إلى فيلسوف عميق مثل جان بول سارتر ، فإن من المؤكد أن سارتر يمكن أن يعد باحثا سيكولوجياً ممتازاً إلى جانب كونه فيلسوف الوجودية الأول في فرنسا[1] . هذا فضلا عن أن الدراسة السيكولوجية هي في جوهرها دراسة « إنسانية » ، فكل ما يمس التجربة الإنسانية في ناحية من نواحيها يمكن أن يعد من قبيل الدراسات السيكولوجية . وعلى كل حال فإن القارئ لا بد أن يكون قد لاحظ خلال تجربته اليومية ما للنظرة من دلالة سيكولوجية تستحق البحث ، خصوصاً وأن ما نسميه بالنظرة إنما هو معنى إنساني صرف .

والواقع أننا نريد أن نقرر أولا وقبل كل شيء أن « النظرة » هي مما يميز الإنسان وحده دون سائر الحيوانات . وإذا كان الحيوان قد ينظر إليك ، فليس معنى هذا أنه يوجه إليك « نظرة » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . حقا إن صلة التعاطف التي قد توجد أحياناً بين الإنسان وبين طائفة خاصة من الحيوانات قد تسمح لنا أحياناً بأن نتحدث عن « نظرة » هذا الكلب إلى صاحبه أو « نظرة »

(١) يلاحظ أن سارتر قد ساهم في مجال الدراسات السيكولوجية بقسط وافر ، كما يظهر مثلا من بحوثه في التخيل ، ونظريته في الانفعال ، وما إلى ذلك ...

ذلك الحصان إلى مالكه (مثلا) . ولكننا نشعر جميعاً بأن دلالة هذه النظرة الحيوانية إنما هي دلالة « إنسانية » يخلعها المرء على الحيوان . وقد يكون الأصل فيها مجرد « إسقاط » . . . أما النظرة الإنسانية فهي في صميمها دلالة سيكولوجية تعبر عن الوجود الإنساني الذي هو على حد تعبير سارتر « وجود بالنسبة إلى الآخرين[1] » l'être-pour-autrui فالنظرة دلالة إنسانية تكشف لنا عن موجود خاص يستطيع أن ينطق بالعينين قبل أن ينطق باللسان . وهذا الموجود هو الإنسان الذي يشعر بأن وجوده هو في عالم الآخرين .

إن المولود الحديث ليظل في شبه عزلة عن الوسط المحيط به . حتى إذا تمكن من أن يوجه نظرة نحو والديه . فهنالك تبدأ علاقته بالآخرين . أو بعبارة أخرى وجوده للآخرين . فالحياة الاجتماعية الأولية للطفل إنما تبدأ في اللحظة التي يستطيع فيها أن يوجه إلى أمه « نظرة » تفهمها . فلا يعود وجوده مجرد « وجود للذات » être pour-soi . بل يصبح « وجوداً من أجل الغير » . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن « النظرة » هي أساس علاقتنا بالآخرين . وهي لهذا دلالة سيكولوجية اجتماعية مثلها كمثل اللغة .

بيد أننا نلاحظ أن « النظرة » ليست مجرد قراءة للعينين . وإنما هي تعدو إدراكنا الحسي لموضوع معين هو هاتان العينان اللتان تنظران إليّ . فأنا حينما أفهم النظرة التي يوجهها إلى « الآخر » أعني في اللحظة التي أدرك فيها دلالة نظرته . لا أستطيع أن أتأمل عينيه كأني بصدد إدراك حسي لموضوع بعينه : بل كما يقول سارتر تجيء نظرة الشخص فتحجب عينيه[2] . والواقع أنني لا أستطيع أن أتميز جمال أو قبح العينين المصوبتين إليّ . في اللحظة التي أدرك فيها دلالة « النظرة » . بل قد لا أملك أن أتميز لون هاتين العينين . . . وإذن فإن ما ينظر إليّ ليس هو هاتان العينان . بل هو « الآخر » l'autre من حيث هو ذات . ولهذا فإن نظرة الغير إلى كفيلة بإخفاء عينيه عن إدراكي الحسي . لأنني عندئذ أكون بصدد إدراك لتلك الذات التي تنظر إليّ .

ولكن ما ذا عسى أن يكون موقفي من هذه الذات التي تنظر إليّ ؟ أو بعبارة أخرى ما هي دلالة نظرته بالنسبة إليّ ؟ هنا نلاحظ أن هذه « النظرة » سرعان

---

(١) يتحدث سارتر عن « الوجود للآخرين » في فصل بأكمله من كتابه « الوجود والعدم » .

(٢) J.P. Sartre: "L'Etre et le Néant", Gallimard, 1943, p. 316.

ما تردنى إلى نفسى . إذ أشعر بأننى « مرئى » أى أننى « موضوع » يراه الآخرون[١] فبعد أن كنت مستغرقاً تقريباً فى العالم الخارجى الذى أتأمله . تجىء نظرة الغير فتردنى إلى ذاتى . إذ تشعرنى بأن « الآخر » يتأملنى على نحو ما أبدو أمام ناظريه . . . والواقع أن نظرة الغير إلى من شأنها أن تشعرنى بأن لى « طبيعة خارجية » يستطيع الآخرون أن يروها كما يرون سائر الأشياء . وهذا الشعور قد يقوى حينما أنتبه إلى أن الآخر لا يرانى إلا « من الخارج » فهو لا يستطيع أن يقف إلا على « المظهر » الذى أبديه . وهذا المظهر قد لا يكون معبراً عن حقيقة نفسى ! ففى « نظرة » الآخرين إنكار ضمنى لحقيقتى الباطنة التى لا أملك أن أظهرها للآخرين . من حيث أنها ليست « شيئاً » يمكن أن أجسده فى « موضوع » خارجى .

والواقع أننى حينما أشعر بأن « الغير » ينظر إلى . فسرعان ما أشعر بذاتى كموضوع مجهول يطلق عليه الآخرون أحكاماً مجهولة . وينسبون إليه من « القيم » ما تشاء لهم حريتهم . وليس من شك فى أن « الغير » أحرار فى الأحكام التى يكونونها بصددى : وتبعاً لذلك فإن شعورى بأننى « مرئى » (أو منظور) — regardé — من شأنه أن يترتب عليه شعورى فى الوقت نفسه بأننى لا أملك دفاعاً أمام حرية الآخرين . لأن فى وسعهم أن يطلقوا على ما يشاءون من الأحكام . فأنا بإزاء الغير « موضوع » يرونه ويصدرون عليه حكما من أحكام القيمة . وليس فى وسعى أن أغير من هذا الحكم على نحو ما أريد . بل قد لا أقف على أحكام الآخرين التى هى وليدة حريتهم[٢] . فأنا حينما أشعر بأننى « مرئى » إنما أشعر بأننى لا أملك دفاعاً أمام حرية غريبة ليست بحريتى (أعنى حرية الآخرين) . ولعل هذا هو ما عناه سارتر حينما قال (فى عبارة قد تبدو لأول وهلة مجافية) : « إن فى وسعنا أن نعد أنفسنا « عبيداً » (esclaves) — أى غير أحرار من حيث أننا « نبدو » أمام الآخرين . »[٣]

---

(١) R. Troisfontaines: "Le choix de J.P. Sartre, Aubier, 1945, p. 25.

(٢) J.-P. Sartre : "L'Etre et le Néant.", p. 326.

(٣) نص العبارة باللغة الفرنسية هو كالآتى :

"Nous pouvons nous considérer comme des "esclaves" entant que nous apparaisons à autrui." (Ibid, p. 326)

ولكننا نعود فنتساءل : ما هو موقفى حينما أشعر بأننى « موضوع » يتأمله الآخرون ؟ هنا يجيب سارتر فيقول : إن موقفى عندئذ ينحصر فى الشعور بالخجل la honte وقبل أن نعرض لدراسة هذا الشعور ، نسوق للقارئ مثلا أورده سارتر لتحليل الموقف الذى نحن بصدده فنقول : هب أننى طمعاً فى مصلحة ، أو حباً فى الاستطلاع ، أو بمحض التعود ، اقتربت من باب مغلق ، وأخذت أنظر خلال ثقب الباب ، لكى أقف على ما يدور داخل الغرفة بين جماعة من الناس . — فماذا يكون موقفى حينما أسمع فجأة وقع أقدام فى الطريق المؤدى إلى تلك الغرفة ؟ لا ريب أننى سرعان ما أنظر خلفى أو أتلفت حولى لكى أرى هل يقدم أحد أم لا . فماذا يكون شعورى إذا وجدت أحداً ينظر إلى ؟ لا شك أن هذه « النظرة » كفيلة بأن تشعرنى بالخجل فى الحال ، إذ أشعر بأننى إزاء شخص يرانى ويحكم على ، كأنما هو بإزاء « موضوع » . والواقع أن نظرة هذا الشخص إلىّ ، من شأنها أن تشعرنى بوجودى فى موقف خاص بعينه ، وفى مكان معين بالذات . وخجلى فى هذه الحالة هو اعتراف ضمنى بهذا الموقف الذى لا أملك أن أنكره فى اللحظة التى رآنى فيها الغير . ومعنى هذا أن نظرة الآخرين كفيلة بأن تجعل منى موجوداً بعينه ، وهذا الموقف هو عين وجوده ؛ وفضلا عن ذلك فإن « نظرة » الغير هى تجعل « الموقف » يفلت من يدى ، فلا أعود مالكاً لزمامه كما كان شأنى قبل ظهور « الآخرين » فى المجال المعين الذى أوجد فيه . وهكذا يكون ظهور « الآخر » بمثابة قضاء على كثير من إمكانياتى فى الموقف الخاص الذى أنا بصدده . وليس فى وسعى بعد ظهور الآخر أن أتحكم فى الموقف كما لو كانت حريتى وحدها هى التى تملك التصرف ، بل لا بد من أن أعمل حساباً لحرية الآخرين التى جاءت فأخرجت الموقف من نطاق حريتى الخاصة . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن نظرة « الآخر » تجعلنى أتجمد فى مكانى ، كأنى بإزاء خطر ، أو كأن لا سبيل إلى إصلاح الموقف الذى أصبح وجوده جزءاً لا يتجزأ من وجودى !

فالخجل إذن هو فى نظر سارتر عبارة عن شعورى بأننى مجرد موضوع أمام الآخرين . وأنا لا أكتشف ذاتى من حيث هى موضوع يوجد أمامى ، بل أولا وبالذات من حيث هى أمام الآخرين . فأنا أكتشف ذاتى عن طريق

« الخجل » لأن الخجل هو الذى يشعرنى بأن وجودى هو بمثابة « طبيعة » une nature يراها الآخرون من الخارج . ومعنى هذا أن الخجل ليس إلا خجلا من الذات « hont de soi » فهو اعتراف بأننى فعلا ذلك الموضوع الذى يراه الآخرون ويحكمون عليه . ولما كان الخجل بمثابة إدراك للذات من حيث أن لها « خارجاً » dehors (إن صح هذا التعبير) ، فإن فى وسعنا أن نقول إنه عبارة عن اعتراف أو إقرار بأن لى طبيعة خارجية يراها الآخرون ولكنها لا تقع تحت حصرى ؛ ولا سبيل لى إلى أن أقف عليها من حيث هى « طبيعة » .(١) وهذا الاعتراف يتضمن إقرار الذات بأنها عبارة عن موجود يتوقف وجوده على الآخرين ، وفى استطاعة الآخرين وحدهم أن يروها من حيث هى « موضوع » يشغل مكاناً بعينه ، ويوجد فى موقف خاص . فالخجل الذى يتحدث عنه سارتر هنا ليس وليد الشعور بأن الذات قد ارتكبت خطأ معيناً ، بل هو شعور عام يغمر الموجود الإنسانى حينما يشعر بأن قد قذف به فى هذا العالم ، وأن لا سبيل له إلى أن يفلت من نظرة الآخرين ؛ لأنه محتاج إلى وساطة الآخرين « لكى يكون ما هو كائنه » (على حد تعبير سارتر)(٢) . وهكذا ننتهى إلى القول بأن الخجل إنما هو شعور أصلى يدرك معه الإنسان أن وجوده هو « فى الخارج » أعنى أنه فى عالم « الآخر » l'autre وهذا الآخر هو الذى يجعل منى مجرد موضوع كما سبق لنا القول ، فهو الأصل فى شعورى بالخجل .

ولكننا نريد الآن أن نناقش هذه النظرية لكى نقف على طبيعة ذلك الشعور الذى يسميه سارتر بالخجل . حقاً إن سارتر هو على حق حينما يقول إن الخجل هو عبارة عن شعورى بأننى « موضوع » أمام الآخرين ، ولكننا نعتقد أنه لا بد من أن نذهب فى التحليل إلى حد أبعد ، لكى نقف على طبيعة هذا الشعور . فاذا نلاحظ فى بداية الأمر ؟ لا شك أن الأصل فى هذا الشعور إنما هو تجربة معينة ، كأن أوجد مثلا بإزاء شخص له سيطرة على ، أو أمام موجود معين أشعر بما له من نفوذ أو تأثير . أما إذا وجدت بإزاء رقيق يعامل معاملة العبيد ،

(١) J.-P. Sartre : "L'Etre et le Néant", 1943, p. 321-323.

(٢) "... j'ai besoin de la médiation d'autrui pour être ce que je suis" (*Ibid.*, p. 349).

فلا شك أنني في هذه الحالة لن أشعر بالخجل حينما أكون بإزائه . ولن يجدى في هذا الصدد أن يقال إن « الرقيب » هنا لا يمكن أن يعد بمثابة « آخر » l'autre ، لأننا لا نفهم لماذا لا يجب أن نعده كآخر . ما دام في استطاعته أن ينظر إلى[1] . ففي نظرية سارتر إذن تعميم لا مبرر له . وقد يكون في الرجوع إلى التجربة ما يصحح من هذه النظرية التي لا تخلو من مغالاة .

أما إذا عاودنا النظر في طبيعة « النظرة » . فإننا نلاحظ أيضاً أن نظرة الآخرين من شأنها أن تشملني في نطاقها كما تشمل سائر الأشياء المحيطة بي . فالآخر يراني كما يرى الباب والحائط والجدران . . . إلخ . وحينما يظهر الآخر في مجالي . فإن الأشياء سرعان ما تندرج في عالمه . كأن ظهوره هو بمثابة انزلاق للعالم نحو « الآخر[2] » . والواقع أنني حينما أكون بصدد منظر خارجي أتأمله . ثم يجيء آخر وينظر إلي . فإنني سرعان ما أشعر بأن هذا المنظر قد أخذ يبتعد عني . ويختفي من مجالي . لكي يندرج في عالم « الآخر » الذي يراني كما يرى الأشياء . وهكذا تكون نظرة « الآخر » كفيلة بأن تجعل العالم يفلت من أمامي . لكي ينزلق نحو الآخرين !

وإذا كان « الآخر » هو أولا وبالذات « ذلك الذي يراني » . فإن هذا لا يعني أنه لا بد من أن أدرك العينين إدراكاً حسياً حتى أشعر بأنه يراني . بل إنني أعمل له حساباً حتى إذا كنت بمفردي . وهكذا قد يكفي أحياناً أن أشعر بحركة بسيطة خلفي . أو أن أسمع وقع أقدام تقترب إلي . أو أن أقف على أثر بسيط يؤذن بوجود إنسان قد يظهر في أية لحظة لكي أعمل حساباً في الحال لذلك « الآخر » الذي يستطيع أن يراني . وفي المثال الذي سبق لنا ذكره . قد أتلفت خلفي حينما أسمع حركة خفيفة . فلا أرى أحداً يقترب إلي . ومع ذلك فإنني ربما أقلع عن مواصلة العمل الذي كنت بصدده (وهو التطلع من خلال ثقب الباب) خشية أن يراني أحد . وفي هذه الحالة . تكون نظرة الغير (التي هي مجرد احتمال) كفيلة بأن تشعرني بالخوف أو الخشية la crainte . مما قد يحفزني إلى الانصراف عن متابعة العمل . ومعنى هذا أن « الخوف » هو كما

(١) Gabriel Marcel : "Homo Viator", Aubier, 1944., p. 244-245.

(٢) J.-P. Sartre : "L'Etre et le Néant", 1943., p. 319.

يقول سارتر رد فعل لنظرة الغير (التى قد تكون مجرد احتمال) . وذلك لأننا نشعر بأن حرية الآخرين هى خطر يجب دائما أن نعمل له حساباً .

ويضيف سارتر إلى « الخجل » و « الخوف » رد فعل آخر لنظرة الغير هو ما يمكن أن نسميه بالزهو « la fierté » والواقع أن الزهو هو شعور من جنس الشعور بالخجل . لأننى فى كلتا الحالتين أشعر بأننى « موضوع » أمام الآخرين . ولكننى فى حالة « الزهو » أحرص على أن أجعل من نفسى « موضوعاً » من شأنه أن « يؤثر » فى الآخرين ! وهكذا أجعل من « الجمال » أو « القوة البدنية » أو غير ذلك كل وجودى . فى سبيل أن أحوز إعجاب الغير أو تقديرهم . فى « الزهو » إذن اعتراف بأننى يمكن أن أكون « موضوعاً » أمام الآخرين . لأننى حينما أزهو بهذا الشىء أو ذاك . فلا بد لى أن أعمل على ألا أكون شيئاً آخر سوى هذا الشىء أو ذاك ! فأنا هنا « أعرض » نفسى على الآخرين كموضوع خاص بقصد أن أؤثر فى الآخرين[1] .

بيد أن سارتر ينسى أن نظرة الغير ليس من شأنها دائماً أن تجعل منى مجرد موضوع . لأنه ليس من شك أننا حينما نكون بصدد « الحب » فهنالك لا تكون نظرة الغير مجرد إحالة إلى موضوع . والواقع أن سارتر لم يستطع أن يقف على حقيقة الحب . لأنه لا يتحدث فى كل ما كتبه عن « الحب » إلا عن ضرب من الامتلاك المادى هو عبارة عن سعى من أجل امتلاك حرية المحبوب من حيث هى حرية . وتبعاً لذلك فإنه يتحدث عن « الإغراء » la séduction الذى من شأنه أن يجعل من المحب مجرد « موضوع » ينظر إليه الآخر فينجذب إليه . وهكذا تجىء نظرة « الآخر » (وهو المحبوب l'aimé فى هذه الحالة) فتكون مجرد استجابة لإغراء ذلك « الموضوع المغرى » objet fascinant الذى هو المحب ! ومعنى هذا أن المحب لا يعمد إلى كشف « ذاتيته » أمام المحبوب . بل هو يضع نفسه تحت نظرته . ويقدم نفسه إلى المحبوب كمجرد موضوع يجتذب نظره ! ولكننا نعتقد أن فى هذه النظرية تعسفاً لا مبرر له . لأن « النظرة » قد تجىء من الطرفين معاً . فليس هناك مسوغ للقول بأن « النظرة » تجىء من « المحبوب » فقط . هذا فضلا عن أن الحب إنما يتولد فعلا حينما لا تكون علاقتى بالآخر

(١) *Ibid.*, p. 350-351.

مجرد علاقة بين « ذات » و « موضوع » بل بين « ذات » و « ذات » ! فالمحب الذى يعرض نفسه أمام المحبوب (على حد تعبير سارتر) لا يريد أن يراه الآخر كأنما هو موضوع يجتذب نظره (أى مجرد موضوع إغراء) بل هو يريد أن ينفذ الآخر إلى صميم ذاته ، أعنى دأنه يريد أن ينكشف أمامه من حيث هو ذات . وفى هذا المجال تكتسب « النظرة » أعمق دلالة إنسانية .

باريس زكريا إبراهيم بقطر